

# .. النهاية



عبدالستار خليف \*

وعندما أوصله الابن الأكبر إلى الباب الخارجي ، تمهل قبل الخروج وسأله عن تدهور الحالة ، قال له يهدوء وثقة :

- الأعمار بيد الله .. ولاحيلة لنا أمام القضاء والقدر . الكبد متليف من أثر البلهارسيا ، وسوف يزداد التضخم ، ولم يكتشف العلاج له بعد . كل مانعطي له هو مسكنات ، والشفاء من عند الله .. قال الابن الأكبر للطبيب وهما خارج جدران البيت الكبير :

- الموت مكتوب علينا جميعاً ، ويجب أن نخبرنا بحالته حتى نستعد لذلك اليوم ، ونعد العدة له .. قال له الطبيب في تردد ، عندما أصبحا يتوسطان الساحة الفسيحة الممتدة أمام الباب الخارجي :

- الأمل في الشفاء من هذا المرض اللعين .. ضعيف . وحالته في تدهور مستمر ... ولكن لا تيأس من رحمة الله .

وهز رأسه الحليق وصمت .

ودع الطبيب الشاب ، عندما ركب الأوتوموبيل الواقف بجوار الكوبري . طفح الدخان من الجكمان وأثار الغبار ، واختفى عن الأنظار . أحس بأنه وقف مدة طويلة على جسر ترعة الدراوية . عاد ..

وها قد بدأ الأب يدخل في دور الغيبوبة ، كل يوم والثاني ..

وفي هذا الصباح الباكر ، هزته زوجته الثانية ، لم يتحرك ، أو يستيقظ ، طنت أنه قد مات ، صرخت ولطمت .. وانقلب البيت عليها ، عرفوا الأمر .. ارتفع الصوت وعويل الصغار . بعد مدة قصيرة ، فتح عينيه وحرك رأسه وذراعيه . أحضروا له كوز لبن حليب ، فشرب عدة جرعات ، وتحسنت حالته قليلاً ، ثم عاود الإغفاءة الثانية ، والثالثة ... تماسكوا وتحملوا السكوت في ترقب .

بدأوا ينصرفون من الغرفة ، إلا عدداً قليلاً .. فاطمة وابنتها هدى ، وبعض الأحفاد ، وابنة الرجل الصغرى ، نوال .

وبدأ الجميع ، خارج الغرفة ، يتململون في وقفتهم أو جلستهم ، فأنزوى كل منهم في غرفته أو في أحد الأركان .. وكل مدة يأتي محروس الأجير من مخزن التبن ، يسأل عن أحوال الرجل .. يصمتون ، وينظرون إلى بعضهم ، ويهزون رؤوسهم :

- لا شيء .

يعرف أنه لا جديد . يستدير ، يمشي محني القامة ، يعود من حيث أتى . يجلس بجوار وديدة زوجته التي تصغره كثيراً ، لم ترزق منه بولد ولا بنت .. ومع ذلك قانعة وراضية بحكمة الله ، تخدمه وترعاه وتهتم بشئونه وتسهر على راحته .

ومحروس الفاعل الأجير ، بالرغم من أنه قد بلغ من العمر أربله ، إلا أنه مازال قوي الذاكرة .. والبدن . قادر على العمل في الصيف والشتاء ، في الحوررات والبرد القارس . ومازال في عينيه بصيص من الضوء ليشاهد طريقه ، ومازالت ذكريات الماضي واضحة في مخيلته ، قادر على أن يروي تاريخ البلدة ويتعرف على وجهاء وأعيان زمام العمدية أجمع ، من أول بلدة الدسانسة إلى كوم عزيزة .

ومحروس العجوز ، ظل طوال حياته يعمل في خدمة هذه العائلة منذ زمن بعيد . يساعد الأب ، الرجل الكبير ، في ري زرة القطن بالساقية الخشبية في المساء ، على ضوء القمر .. يظل ساهراً بجوار الجاموسة المربوطة بالساقية ، يضربها بالرخو المجدول كلما توقفت أو تكاسلت ، يطرقع برفق فوق عجيزتها وهو يحثها على السير .. خفي رجلك ياغالية .

والرجل الكبير ، يكون هناك في وسط الأرض العطشى حتى تصله المياه ويفتح لها الخطوط لتروي الشرائح والمصاطب ويغلقها بعد أن ينتهي من ربيها . يجلس مع محروس بجوار الساقية ، يشربان الشاي الساخن الذي أعده محروس على رابية النيران ، يدخنان السجائر المبرومة ، يتحدثان عن الماضي البعيد ، وذكرياته السعيدة ، أيام الشقاوة البريئة ، والأحداث الجسام ، ونفي سعد باشا زغلول ، والاستقلال التام أو الموت الزؤام ..

( الجزء التالي الأسبوع القادم )

\* كاتب وروائي مصري



■ الصورة بعدسة احمد الشكيلي

أيام الحصاد ، يعطيه مايكفيه من الحبوب ويزيد . وفي العيد الكبير لا ينسأه في لحم الخروف الذي نضحي به . أه ، يامحروس .. من سيعطيك بعد ذلك ، سمسار الحمير المريضة ، ذلك الشح اللثيم ، ال.. ال...

وسقط من فوق الحمارة ، عندما غفل في النوم ، وهي تسير . عندما أحست الدابة بأن الحمل فوق ظهرها قد خف ، أخذت تركض وهي تنهق بأعلى صوت . وانطلق يجري خلفها ، خارج حدود البلدة ، وهو يسب ويلعن ويصيح بأعلى صوته يطلب منها أن تتوقف ...

وهي تركض ..

وهو خلفها يجري ..

- ٤ -

الرجل ، مازال يحترس . طال الوقت وهو يعاني سكرات الموت . دعوه يمته في هدوء .

كلما راح في الغيبوبة ، ظن الجميع أنها إغفاءة الموت . يصمتون وينتظرون حتى يفيق ، أو يتحرك أو يتنفس ، يفتح عينيه ، أو يحرك شفثيه أو ذراعيه .

وطال الانتظار هذه النوبة.. لقد مات.. وانتهى الأجل ..

جال في نفوسهم هذا الخاطر وبقي حيناً يطفو ويرسب .. حتى جددت نبضاته وأنفاسه ، الأمل في سريان الدماء في عروقه . تنفسوا الصعداء ، وحمدوا الله واستراحوا في مجلسهم .

في آخر زيارة للطبيب الشاب القادم من أبوحمص . كشف عليه وفحصه جيداً وجمع معاداته في الشنطة السمراء ودون روشة العلاج وطمأنهم على الحالة والشفاء العاجل ، بإذن الله ، بالرغم من علمه بأن مرض الكبد الوبائي حالة ميؤوس منها !!

على حافة القبر : إن لم يمته الآن ، سيموت بعد ساعة ، أو اثنتين ، عندما أغادر حدود البلدة ويصبح الرجوع صعباً ، ربما.. الروح تنتظر الابن المحب لديه . ابن فاطمة وهي الأثيرة عنده . وابنتها الصغيرة يرسلها إلى مدرسة النخلة البحرية مثل أولاد أعيان الدراوية . تنتعل الحذاء الجلد وتلبس الفستان النظيف ، أمها تمشط لها شعرها كل صباح ، قبل مغادرة البيت ، تحمل في يدها شنطة جلد بها كراريس وكتب وأقلام ، وتحصل على العملة المعدنية من أبيها كل يوم . وفي يوم الجمعة . عندما تعود من المدرسة بعد ظهر الخميس ، لاتبرح غرفة أمها . تعيش في نظافة وراحة . تأكل وتلبس ولا تعمل في البيت أو الغيط طالعة لأمها . ابن الوز عوام . وأخوالها من أكبر عائلات أبوحمص ، عائلة المخيوم . أصحاب شاحنات النقل الكبيرة والأجرة الصغيرة ، والجراجات الواسعة ، هكذا تقول فاطمة المخيومية عندما تتحدث عن أهلها وثرانهم وما أعطاهم الله من فضله .

وكم من مرة اشتقت الذهاب إلى المركز لمشاهدة كل ذلك ، ل..ل..ل لكن ظروف العمل في الغيط لا تسمح لي بذلك أبداً ، فكل يوم لا بد وأن أعمل من الصباح حتى المساء ، في الحقل . يوم الجمعة ، أعاون محروس وزوجه في أعمال البيت وتنظيف الزريبة ووضع التراب الجاف تحت أرجل الدواب .. حتى ترقد الماشية ولا يتلوث ضرعها ويلوث اللبن أثناء الحليب ، هكذا يقول محروس العجوز المحنك .

العجوز ، محروس ، الذي يعمل في خدمتنا ، منذ أن كنت صغيراً وأنا أعني له . يقال ، قبل أن أنزل من بطن أمي وهو يعمل مع أبي ، يساعده في الغيط والبيت . لذا يحبه أبي ويكرمه ويرعاه ويعطيه كسوة الصيف وكسوة الشتاء .

- ٣ -

عندما أصبح عبدالنبي وحيداً ، خارج جدران الدار ، وجهاً لوجه مع الحمارة البدينة .. تمهل برهة وهو يربط على ظهرها البرذعة ويشدها بقوة ويحكم الرباط المجدول أسفل مقدمة البطن ، ويتأكد من جودة كل شيء .

أمسك بها من خصلة الشعر الطويل التي تعلق الرأس بين الأذنين ، وتوقف . طافت نظراته القلقة على كل شيء حوله بالبلدة ، ابتعدت النظرات الصائرة إلى التربة الصغيرة والكوبري القديم ، وتسلسلت للبر الأخر من الجسر ، تمتد مساحات الحقول الخضراء والأشجار الموريقية والنخيل العالية .. وفي البعيد تبدو البلدان الطينية السمراء متناثرة تحت السماء وخط الأفق ..

لأول مرة في حياته يعمن النظر ويفكر في المهمة الموكولة إليه .. فكاد يبكي . هم أن يعود للداخل ، أن يتراجع عن الذهاب .. لكنهم لن يتركوه في حاله ، سوف يطعنون في رجولته ، ويقولون إنه غير قادر على إداء هذه الأمور السهلة البسيطة ، فكيف سيتحمل مسئولية بيت وزوجة وأولاد ؟!

فجأة .. قفز فوق ظهرها ، ظل متردداً برهة ، نخس بطن الدابة بطرف عود الصفصاف بعنف . هز ساقية وحث الدابة على السير . حدث نفسه في سرور . سوف تصبح مثل البني آدمين ياولد يا عبدالنبي ، تذهب إلى المركز لأول مرة في حياتك ، هيه ، وتعود لتحدث الأهالي عما شاهدت هناك في المركز ، وعما حدث لك في هذا اليوم ، ولا مانع من أن تضيف من عندك بعض الشيء .. و.. و.. حالاً يا مكلوبة حالاً.. خفي رجلك ..

عبرت الدابة الكوبري الخشبي ، تنفس الصعداء وهذا ، تساءل بينه وبين نفسه لماذا يرسلونه ، هو ، بالذات إلى المدينة البعيدة : المركز ، الزحام ، الشوارع المكتظة بالبشر والباعية ، على ماسم ، الحوانيت والعربات . البيوت العالية الشاهقة ؟! وتعجب .. لماذا في هذا الوقت بالذات يريدون التخلص منه بإرساله بعيداً عن حدود الديار ؟! بعيداً عما يدور بين جدران غرفة فاطمة والرجل الراقد في انتظار .. ملك الموت الذي يأتي ، على حين غفلة ، يخطف روحه ويرحل !!

هو أولى بأن يظل بجواره ، يسمع مايقول وما يخبرهم من أسرار ، ربما يخبرهم كيف يتم توزيع التركة عليهم ، وهو غائب !! غائب !! أه ، يا عبدالفتاح !! فعلها هذا السمسار اللثيم ، تاجر الحمير ، اليهودي الخسيس ، استطاع بكل وسيلة أن يجعلني أرحل عن الدار . هيه . طوال عمري وأنا غائب ، غائب عن إدارة شئون الدار والأموال . عبدالفتاح ، الداهية الحويط .. صدق من قالها من الدراوية .. بأنك ابن أمك !! ابن امرأة ولست ابن رجل !! من أدراني هل تنوي إحضار عبدالرازق حقيقة أو ماذا تنوي أن تفعل ؟! تضرب عصفورين بحجر واحد : إبعادي عن الدار ، وعدم وصول عبدالرازق .. لكنني سأحاول بكل طريقة الوصول إليه وإحضاره . هل الرقم الذي أعطاني إياه صحيحاً أو فالفصو ، ليفوت الفرصة عليهم وعلى ؟! كيف يمكن الإتصال بأخي عبدالرازق ؟! هناك طرف البقال الذي يسكن عنده . فوق السطوح . كما أخبرنا كثيراً وحدثنا عن ذلك ، عندما يأتي في الأجازة السنوية .. أه ، مالعمل ؟! ل..ل..ل لكنني لن أعطيه هذه الفرصة . حالاً.. يا مكلوبة . خفي رجلك . أنت والسمسار ضدني !!

هل أذهب وأعود سريعاً قبل أن يأتي ملك الموت ؟! يجب أن أحصل على نصيبي في الميراث ؟! هل أعود وأقل له ، لم أوفق في الإتصال به ؟! ويهز السمسار رأسه ويقول لي ساخراً مني ، كعادته ، أنت طول عمرك خائب ، لكن محسوب علينا ، أمام الأهالي ، إنك رجل.. طويل وعريض !! دوماً يرددها لي بسبب أو بلا سبب !! أو .. أو .. أأقل .. اتصلت وسوف يحضر عما قريب . مالحل يا عبدالنبي الآن ؟! فكر جيداً قبل أن تخونك نفسك ويتوه نكاؤك وتخرج من المولد بلا حمص !! وأنا الذي عشت طوال عمري كالجاموسة التي تدور في الساقية . معصوبة العينين تدور لتخرج الماء ، تروي الأرض ، ورخو الفرقلة ينهال على ظهرها . ماذا أخذت طوال هذه السنين ؟!

لا شيء !!

وهل كان ينقصك شيئاً يا عبدالنبي مادمت تأكل وتشرب ؟! وأين نصيبك وحقك في الحياة ، مثل بقية أفراد العائلة ؟! طول عمرك تأكلها لقيمات خبز بحصوات ملح ، وتصحو ميكراً كالباتر وأنت راضي النفس سعيد بذلك ، من أجل الرجل الذي وضع بذرتك في باطن الأم الحنون . ل..ل..ل لكنه الآن